عام

الثورة الكانطية

محمد مزوز
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث
All rights reserved
Mominoun Without Borders

على سبيل البدء:

ولد كانط في مدينة كونغسبرغ Königsberg سنة 1724 في أسرة متواضعة، تتكون من أحد عشر طفلاً، كان كانط رابعهم، وقد توفي والده، الذي كان صانع سروج، سنة 1747، فاضطر كانط للتوقف عن الدراسة حيث زاول مهنة المربي لدى مجموعة من العائلات، بدءًا من سنة 1755 اشتغل كانط مدرسًا حرًا في جامعة كونغسبرغ، بفضل الدراسة التي قدمها تحت عنوان "بحث في المبادىء الأولى للمعرفة الميتافيزيقية". و لم يصبح مدرسًا رسميًا إلا ابتداءً من عام 1770، بفضل الدراسة التي قدمها باللاتينية تحت عنوان "صورة ومبادىء العالم المحسوس والعالم المعقول". ولم تتوفر معلومات كثيرة عن حياة كانط، سوى أنه كرس حياته للبحث والتدريس، عرف عن كانط أنه لم يغادر مدينته، ولم يتزوج طيلة حياته، وعندما توفي كانط سنة 1804 أعلنت مدينته الحداد العام، وحمله أهلها إلى كاثدرائية المدينة، وكتبوا على قبره ـ بماء الذهب ـ جملته الشهيرة: **"شيئان يملآن قلبي إعجابًا: السماء المرصعة بالنجوم فوقي، والقانون الأخلاقي في صدري"**.

تميزت كتابات كانط قبل سنة 1770 بالتنوع؛ فقد نشر عدة أبحاث لم تكن تتعلق بالفلسفة وحدها، وقد كان يدرس كل المواد تقريبا. ثم تطور فكره بشكل تدريجي، إذ انتقل من الدوغمائية العقلانية المتميزة بأسلوب ليبنتس إلى المذهب الإمبيريقي وفيزياء نيوتن. لقد كانت سنة 1770 تاريخًا حاسمًا في هذا الانعطاف الذي حصل في تطوره الفكري؛ أي بدءًا من دراسته عن "صورة ومبادىء العالم المحسوس والعالم المعقول". ففي هذه الدراسة سيعتبر كانط أن الزمان والمكان عبارة عن مقولتين حدسيتين، ولا يمكن اختزالهما بأي حال من الأحوال إلى مجرد مفاهيم أو تصورات. بعد سنتين من هذا التاريخ كتب إلى ماركيوز هيرتس M.Herz رسالة يعبر فيها عن نيته تأليف كتاب بعنوان: "حدود الحساسية والعقل"، لكن نضج التفكير لدى الفيلسوف يسير ببطء، إذ كان لابد من انتظار سنة 1781 لكي ينشر كانط كتابًا يترجم نيته السابقة تحت عنوان مغاير هو "نقد العقل الخالص"، وصدرت الطبعة الثانية المنقحة بمقدمة جديدة بعد ست سنوات. بعد أن اتخذت فلسفة كانط صورتها الأولية في صيغتها النقدية أو الترنسندنتالية، أردفها ـ قبل إنجاز الطبعة الثانية لنقد العقل الخالص ـ بمختصر يحمل عنوان "مقدمات لكل ميتافيزيقا تريد أن تكون علمًا في المستقبل" سنة 1783. بعد سنة واحدة من إنجاز الطبعة الثانية لكتاب نقد العقل الخالص، نشر كتاب "نقد العقل العملي" سنة 1788، ثم نقد ملكة الحكم سنة 1790. ويجوز القول إن قواعد النسق الكانطي قد تحددت بإخراج هذه النشرة المتعلقة بمجال الإستطيقا، لتنضاف إلى مجال العقل العملي والعقل الخالص. أما النشرات اللاحقة لكتبه المتبقية، فقد كانت تطويرًا لجوانب من هذا النسق. فبعد نشره لكتاب "أسس ميتافيزيقا الأخلاق" سنة 1785، استكمله بنشر كتاب "المبادىء الميتافيزيقية الأولى لمذهب الحق" سنة 1797. أما كتاب "الدين في حدود العقل البسيط" الذي نشره سنة 1793، والذي سبب له بعض المشاكل مع الرقابة، فقد أتممه بـ "صراع الملكات" سنة 1798. بعد أن أحس كانط بالوهن يصيب قدراته الجسدية، تخلى عن التدريس سنة 1797 وتفرغ لفلسفته الطبيعية، إذ حاول أن يبين

علاقة الفيزياء بـ" المبادىء الميتافيزيقية لعلم الطبيعة"، إلا أن الموت باغته سنة 1804 ولم يمهله لإتمام هذا المشروع.

1. فلسفة كانط:

ويمكن تقسيم فلسفة كانط إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

أ- الفلسفة النظرية: وهي التي عمل على تطويرها في كتاب "نقد العقل الخالص".

ب- الفلسفة العملية: وهي التي عرضها في كتاب "نقد العقل العملي"، وفي كتاب "أسس ميتافيزيقا الأخلاق".

ج- فلسفة الجمال: وهي التي عرضها في كتاب "نقد ملكة الحكم".

أما الفلسفة النظرية، فهي محاولة للجواب عن السؤال: "ماذا يمكنني أن أعرف ؟"، والفلسفة العملية هي محاولة للجواب عن السؤال: "ماذا يجب علي أن أفعل؟"، في حين أن الإستطيقا أو فلسفة الجمال تشغل وضعًا وسطًا بين الفلسفة النظرية والفلسفة العملية، وهي محاولة لمعرفة طبيعة وأهمية ملكة الحكم التي تعتبر قاعدة الحكم الجمالي.

ما هي أهم الملامح التي اتخذها المشروع النقدي الكانطي؟

تتميز الفلسفة الكانطية، باعتبارها مشروعًا يهدف إلى بناء المعرفة العقلية، ومن ثم تعيين الحدود التي يجب أن تقف عندها، وذلك بتشذيب مختلف إنتاجات الفهم البشري الذي تاه خلال قرون وبأشكال مختلفة في موضوعات متعددة. إلا أن المشروع النقدي لن يتحقق سوى بإيجاد حل للقضايا الأساسية التي أفرزتها نظرية المعرفة، التي تصورت الحقيقة، باعتبارها تطابقًا بين الفكر والموضوع. لقد تصورت المثالية هذا التطابق من خلال مفاهيم فطرية أو على الأقل مفاهيم ترقد قبليًا في عقل إلهي، والمنطق هو الذي يعمل على نشر تلك المفاهيم عبر مقولاته واستخدامها بطريقة تساعد على الفهم والإدراك. أما التجريبية، فتذهب عكس ذلك إلى كون المعرفة بعدية؛ أي أنها تأتي من مصادر خارجية، ومن ثم فلن تكون معرفة ضرورية ولا كونية.

ولسد الباب أمام الشك، يلزم أن تكون معرفتنا ضرورية وكونية، ولن يتأتى ذلك إلا إذا كانت أحكامنا تحليلية وتركيبية، والأحكام التحليلية هي تلك التي لا تضيف جديدًا إلى ما نعرفه سلفًا، كقولنا: كل جسم له وزن. أما الأحكام التركيبية، فهي التي تضيف جديدًا كقولنا: 2+3=5، فالعدد 5 لا يوجد في 3، ولا يوجد في 2. إذا كانت الأحكام التحليلية قبلية، فكيف تكون الأحكام التركيبية قبلية بدورها؟ إن كان من اللازم أن يتوافق فهمنا

للعالم مع أشياء الطبيعة، فإن المعرفة القبلية ستكون مستحيلة في هذه الحالة. فإذن لكي تكون معرفتنا بالعالم تركيبية يلزم أن تعكس القاعدة، وفي هذه الحالة الثانية سيكون على الأشياء الطبيعية أن تتوافق مع فهمنا للعالم. إن طبيعة حدسنا للأشياء هي التي تعين طبيعة الأشياء وليس العكس؛ بمعنى أننا لا نعرف من الأشياء سوى تلك التي نخلقها في العالم أو نضعها فيه. من هنا جاءت المقارنة مع كوبرنيك لتفسير بعض الظاهر الفلكية التي لا تنسجم مع القول بدوران الشمس، افترض كوبرنيك العكس؛ أي أن الأرض هي التي تدور.

إذن، فمعرفتنا بالأشياء تقتضي الإحاطة بشؤون المعرفة أولاً، و هذه الإحاطة، أو ملكة المعرفة، هي معرفة قبلية؛ أي سابقة على معرفتنا بالأشياء، وبعبارة أخرى إنها معرفة ترنسندنتالية متعالية. وهذه الخاصية الترنسندنتالية هي التي تجعل معرفتنا تتميز بالضرورة والكونية، لأنها تعود إلى مصدرين أساسيين، قد يكون لهما جذر واحد، وهما: الحساسية والفهم. إذا كانت كل معرفة تبدأ مع التجربة، إلا أن هذا لا يعني أنها تصدر عنها بالضرورة، وهذا هو الخطأ الذي سقطت فيه النزعة الإمبريقية، فأشياء العالم الخارجي تصدر عنها إحساسات (ألوان وأصوات وطعوم وروائح ... الخ)، وهذه الإحساسات تتميز بالتنوع والتعدد. لكنها لا تدرك بما هي كذلك، بل تدرك عندما تنصهر في صورة واحدة، إذ يتم إدراكها إدراكًا مباشرًا؛ أي أن أشياء العالم الخارجي هي التي تتوافق مع معارفنا، وليس العكس. ذلك لأن التعدد الملاحظ على مستوى الأشياء يؤول في آخر المطاف إلى صورة موحدة، وهذه الصورة من طبيعة حدسية. وبما أن صورة حدسنا هي في حد ذاتها صورة خالصة، فهي إما إحساس داخلي (الزمان) أو إحساس خارجي (المكان). والزمان والمكان هما صورة الحساسية، وهذه الصورة الحدسية هي التي تضفي الوحدة على التنوع الحسي.

أراد كانط بهذا أن يعيد بناء الميتافيزيقا التي كان يعتبرها ساحة معركة، إذ في هذه الساحة تمزق العقل أيما تمزق بين الشك كما عرف مع هيوم من جهة والدوغمائية كما عرفت مع ليبنتس وولف من جهة ثانية. تستدعي إعادة بناء الميتافيزيقا الكشف عن أخطائها القاتلة أولاً، وذلك قصد تجنب هذه الأخطاء أثناء عملية البناء الجديدة. وتتمثل هذه الأخطاء القاتلة في محاولة العقل الخالص معرفة موضوعات توجد خارج التجربة، وهي بالضبط: الله والحرية والنفس. وهذه المحاولة الجامحة تؤدي بالعقل إلى السقوط في مفارقات ومغالطات ميتافيزيقية، نظرًا لكون هذه المحاولة مغامرة تتجاوز حدود العقل. فما هو الحل الذي يقترحه كانط؟

خلافًا للموقف الرافض للميتافيزيقا، يرى كانط أن الإلقاء بهذه الموضوعات الميتافيزيقية جانبًا سيؤدي إلى تدمير العقل بذاته؛ أي سيتم الإلقاء بالماء وبالطفل في الوقت نفسه. يتمثل الموقف السليم إذن في إصلاح هذه الأخطاء بدلاً من التخلي عن الموضوعات التي كانت وراءها، وإصلاح الخطأ يبدأ من العقل الذي كان سببًا فيه. يلزم أن يفهم العقل الخالص أن له حدودًا عليه أن يتوقف عندها، وهذا يعني أن على العقل أن يقدم نقدًا ذاتيًا. ونقد العقل يعني محاكمته، فكلمة **نقد** Critique مشتقة من اللاتينية Criticus التي تعود إلى الكلمة

الإغريقية Krinein التي تعني حاكم بنوع من الحسم. فنقد العقل الخالص معناه: تقديم العقل للمحاكمة؛ أي محاكمة العقل للعقل بالعقل.

إذا كان العقل غير قادر على فهم وإدراك القضايا الميتافيزيقية، فما السبيل إلى هذا الفهم والإدراك؟

يجيب كانط بأن الاستخدام الوحيد الممكن للميتافيزيقا يمر عبر الأخلاق، إلا أن عبور هذا الطريق يسير في الاتجاه المعاكس لما هو مألوف ومتداول، نعثر هنا على الثورة الكوبرنيكية الثانية.

تكمن نقطة الانطلاق ـ لفهم هذه الثورة الأخلاقية ـ في طرح سؤال بسيط هو التالي: ما الذي يجعل فعلاً ما أخلاقيًا؟

هناك جواب قديم شائع متداول مفاده أن الفعل الأخلاقي هو فعل خيّر، وهذا يعني وجود تطابق بين الأخلاق والخير. ولكن السؤال الكانطي يتجاوز هذا التطابق بالعودة إلى جذر المشكلة الأخلاقية؛ أي طرح السؤال التالي: ما الخير؟ هل يصلح فعل الخير أن يكون قاعدة أخلاقية؟

هذا سؤال غير أخلاقي، لأنه يدخل في مجال **علم الأخلاق** Ethique وليس في مجال الأخلاق Morale. تقول الأخلاق: افعل الخير. أما علم الأخلاق، فيتساءل: ما الخير؟ أو لماذا سأقوم بفعل الخير؟ يذكرنا هذا النوع من الأسئلة بنمط التفكير اليوناني، بل يذكرنا بالسؤال السقراطي بالضبط. فمصطلح Ethique مشتق من الألفاظ اليونانية Êthikê،Êthikos، التي تعود إلى Êthos. أما مصطلح Mœurs فهو مشتق من اللاتينية Mors و Mores ؛ أي أن علم الأخلاق يسمح لنا بوضع مسافة بيننا وبين الفعل، أما الأخلاق فتأمرنا بالقيام بفعل معين.

كيف يمكن وضع مسافة بين الذات والقيم الأخلاقية؟ هل هذا الأمر ممكن؟

للإجابة عن هذا السؤال نقترح العودة إلى مقال كانط الشهير: ما الأنوار؟

تعني الأنوار حسب كانط **"خروج الإنسان من حالة الوصاية"**، والإنسان نفسه هو الذي يتحمل مسؤولية خضوعه لهذه الوصاية. وتتمثل هذه الحالة في عدم قدرة الإنسان على استخدام عقله بدون توجيه من أحد، والسبب في غياب هذه القدرة لا يعود إلى عجز في العقل بل يعود إلى عجز في اتخاذ القرار، وإلى عجز في الجرأة على استخدام العقل. من هنا جاء شعار الأنوار: تجرأ على استخدام عقلك الخاص.

كيف يمكن ترجمة هذا الشعار على أرض الواقع؟ ما شرط الجرأة على استخدام العقل؟

يتمثل هذا الشرط في شيء واحد هو: الحرية. فما علاقة الحرية بالجرأة؟ تصبح الجرأة ممكنة إذا توفق الإنسان في استخدام عقله استخدامًا عامًا Usage public de la raison، والاستخدام العام للعقل يقتضي التعبير عن الرأي علانية أمام الملأ بدون مواربة، وإلا سيكون الأمر مجرد نفاق أو مداهنة. وعلى ضوء حرية استخدام العقل جهرًا وعلانية، ومن خلال وضع مسافة بين الذات والقيم الأخلاقية، يعاودنا السؤال من جديد: ما الذي يجعل فعلاً ما أخلاقيًا؟ هل هو اقترانه بقيمة الخير مثلاً؟ أم هو الخضوع للقانون؟ يرى كانط في القسم المعنون بـ **"الانتقال من فلسفة الأخلاق الشعبية إلى ميتافيزيقا الأخلاق"** من كتاب **"أسس ميتافيزيقا الأخلاق"** أن الفعل الخيّر الذي يستهدف تحقيق غايات ممكنة أو واقعية ناتج عن "الأمر الظني (الافتراضي) Impératif hypothétique"، وذلك في مقابل "الأمر القطعي Impératif catégorique" الذي لا يستهدف تحقيق أية غاية على الإطلاق. ويستدعي الأمر الظني القيام بأفعال تدخل في نطاق الحذق أو البراعة Habileté، لأن الأمر لا يتعلق في هذه الحالة بمعرفة الخير المقصود بقدر ما يتعلق بالوسيلة التي يلزم اعتمادها لبلوغ ذلك القصد. يسوق كانط المثال التالي لبيان هذه الوسيلة المعتمدة في أوامر الحذق والبراعة: "إن التعليمات التي ينبغي على الطبيب اتباعها لكي يشفي مريضه شفاء تامًا، والتعليمات التي يجب أن يلتزم بها واضع السموم لكي يميته بطريقة مؤكدة، كلتاهما متساويتان من حيث قيمتهما ما دامتا تستوفيان ما هو مطلوب على الوجه الأكمل" (Métaphysique des mœurs, 1994,p.89).

ومعنى هذا أن الفعل الذي يقترن إنجازه بغاية ما ـ و لو كانت هذه الغاية هي تحقيق الخير ـ ليس فعلاً أخلاقيًا على الإطلاق. يضاف إلى ذلك أن قيمة الخير هي قيمة ذاتية، رغم أنها تقدم نفسها كقيمة عامة، فأن يشعر شخص ما بالارتياح عقب إقدامه على فعل الخير، مثل مساعدة محتاج أو مريض أو من يواجه خطرًا أو يمر بوضعية صعبة...الخ، كل هذا لا يقوم دليلاً على صدور فعل أخلاقي، لأن مثل هذا السلوك يكون مختلطا بميول أخرى لا علاقة لها بالغيرية، بل هي أنانية محضة، كالرضا عن النفس والشعور بالزهو أثناء إشاعة الحبور لدى الآخرين، والذي يتمثل في الإحساس بإشباع باطني بعد ملاحظة النتائج المحصل عليها. (نفسه، ص: 66)

أي أن الفعل لا يكون أخلاقيًا إذا كان مطابقًا لمبدإ الخير، فهل يصبح كذلك إذا كان مطابقًا لمبدإ السعادة؟

2 ـ اقتراح نص لتحليل مفهوم السعادة:

يقول كانط: **"إن مفهوم السعادة مفهوم غير محدد بدقة، فرغم وجود رغبة لدى كل إنسان لكي يصبح سعيدًا؛ فليس في وسع أي شخص أن يفصح عما يرغب فيه وعما يريده بكلمات دقيقة متماسكة. والسبب في ذلك يعود إلى كون جميع العناصر المكونة لمفهوم السعادة هي من طبيعة إمبريقية؛ بمعنى أنها تصدر عن**

التجربة. وبالرغم من ذلك، فإن مفهوم السعادة يستدعي بالضرورة كلاّ مطلقًا وحدًا أقصى من هناء العيش الذي تقتضيه وضعيتي الراهنة والمقبلة.

ومع ذلك فمن المستحيل على كائن متناه يحمل فكرًا ثاقبًا، وهو في الوقت نفسه قوي أكثر مما نتصور، أن يكوّن تصورًا محددًا عما يريد بالضبط، فهل يريد الثروة؟ كم هي الهموم والدسائس التي سيجلبها لنفسه؟ وهل يريد مزيدًا من المعرفة والتنوير؟ ربما لن يمنحه ذلك سوى رؤية عميقة تسمح له بتمثل أكثر فظاعة للشرور التي لم يكن يأبه بها، حتى الآن بالرغم من استحالة تجنبها، أو ربما سيزيد من شحن رغباته بحاجات جديدة، ويجد الكثير من الصعوبة في إشباعها، وهل يريد حياة مديدة؟ ولكن من يضمن له أن ذلك لن يكون سوى عذاب طويل؟ أما إذا كان يريد الصحة على أقل تقدير، فكم من علل فيزيائية منعته من إفراط كان سيفقده صحته كاملة.

إن المشكلة التي تتمثل في تحديد دقيق عام لأي فعل تتولد عنه سعادة كائن عاقل، لهي مشكلة بدون حل، إذ ليس ثمة سلطة قادرة على توفير السعادة، لأن هذه الأخيرة ليست مثالاً من صنع العقل، بل من صنع خيال مؤسس على مبادئ إمبريقية فقط، ننتظر منها بدون جدوى أن تكون قادرة على تحديد الفعل الذي سيحقق مجموع سلسلة من النتائج هي في الواقع لامتناهية".

Kant, Métaphysique des mœurs 1, éd. Flammarion, 1994, pp. 93/94

إذا قارنا مع التراث الفلسفي السابق، يتبين لنا مدى حجم الثورة الكوبرنيكية التي قادها كانط في مجال الأخلاق. إذ يجوز القول إن الفلسفة اليونانية والفلسفة الوسيطة (المسيحية والإسلامية) قد أنتجت نظرية أخلاقية تتمحور حول السعادة باعتبارها خيرًا أسمى، ومن ثم يمكن وسم تلك الأخلاق بكونها أخلاق السعادة. لنفتح كتاب أرسطو الشهير "**الأخلاق إلى نيقوماخوس**"، ولنقرأ في الكتاب الأول منه ما يلي:

"الخير هو ما نميل إليه في كل الأحوال ... فإذا كان صحيحًا أن هناك غاية ما نريدها لأفعالنا بينما الغايات الأخرى نؤمها في سبيل هذه الغاية الأولى، وإذا كان صحيحًا أننا لسنا مجبرين على الانتقال من غاية لأخرى، إذ نتصرف وفق أحوالنا - نظرًا لكوننا سنتيه في اللامتناهي، كما ستفرغ ميولنا من مضامينها وتصبح بدون نتيجة - فمن الواضح أن هذه الغاية القصوى ستكون هي الخير بل الخير الأسمى" (Ethique de Nicomaque , p. 20 , 1965)، ثم بعد هذا يتساءل أرسطو: ولكن ما هو هذا الخير الأسمى؟ ويجيب: **"يتفق الجميع على نعته باسم واحد: السعادة، فسواء تعلق الأمر بالخاصة أو بالعامة، فهم مجمعون على أن رغد العيش والنجاح في الحياة، يعادلان الحياة السعيدة"**. (نفسه، ص: 22)

يرفض كانط إذن، أخلاق السعادة والخير الأسمى، بسبب كونها تختلط بالميول، والميول تقود إلى التجارب الخارجية؛ أي إلى العناصر الإمبريقية كاللذة، والمتعة، والإشباع، والرضا، والراحة...إلخ. ومعنى هذا أن الفعل الأخلاقي يلزم أن ينفصل عن الغايات أو الأهداف الخارجية، ويصبح مقابل ذلك فعلاً إنسانيًا خالصًا. فهل ارتباط الفعل بالواجب مثلاً سيحوله إلى فعل أخلاقي؟

يورد كانط مثال التاجر الذي يشعر بالواجب في معاملته لزبنائه، فيحدد ثمن البضاعة ويشهره أمام الجميع، ولا يميز بين الطفل أو المغفل أو الفطن. فهل يعتبر سلوك مثل هذا التاجر سلوكًا أخلاقيًا؟ إن التاجر الذي يحرص على كسب الزبناء بواسطة التحديد الدقيق للأسعار، إنما يفعل ذلك من أجل مصلحته؛ أي تحقيق المزيد من الأرباح في مجال المنافسة الذي تقتضيه عمليات البيع والشراء (نفسه، ص: 65). فهذا السلوك **يتطابق مع الواجب ولكن لا يمليه الواجب**، لأن الواجب هاهنا لا يترافق مع الأمر القطعي. والأمر القطعي لا يأخذ بعين الاعتبار أية غاية خارجية في الحسبان؛ أي أنه يستبعد كل عنصر إمبريقي كيفما كان نوعه. إن الأمر القطعي هو الذي يحوّل السلوك إلى فعل أخلاقي وليس الواجب في حد ذاته؛ أي أنه يحدد الفعل بطريقة موضوعية تقوم على الضرورة والكونية، في حين أن الأمر الظني الافتراضي يحدد الفعل من خلال علاقته الخارجية بطريقة بعدية وليس بطريقة قبلية، ومن ثم فهو ليس كونيًا ولا ضروريًا لأنه ليس موضوعيًا. فالأمر القطعي إذن لا يتعلق بمادة الفعل بل بصورته، وصورة الفعل تترجم في الصيغة التالية:

"اعمل فقط وفق القاعدة التي تريد لها أن تصبح في الوقت نفسه قانونا عاما".

وبما أن القانون العام يتطابق مع أشياء الطبيعة؛ أي مع القانون الفيزيائي العام، فإن الأمر القطعي يمكن أن يتخذ الصيغة التالية كذلك:

"اعمل كما لو أن قاعدة فعلك ينبغي أن ترتفع بواسطة إرادتك إلى مستوى القانون الكوني للطبيعة".

يورد كانط بعض الأمثلة يتضح من خلالها أن التبريرات التي نقدمها كدليل على قيامنا بسلوكات نعتبرها أفعالاً أخلاقية، لا تنسجم في الغالب مع القاعدة السابقة:

أ- هناك مثال لشخص يحاول أن يقنع نفسه بالإقدام على الانتحار نتيجة معاناته من شرور وآلام لا تكاد تنتهي، ويبرر يأسه وضجره بالقول: إن حبي لذاتي يقتضي أن أضع حدًا لحياتي، إذ وجدت أن تمديد هذه الحياة سيزيد من عذاباتي. وهكذا يجعل هذا الشخص من حب الذات، قانونًا طبيعيًا عامًا.

ب- هناك مثال الشخص الذي تدفعه الحاجة إلى اقتراض المال من الآخرين، مع علمه أنه لن يستطيع سداده، إلا أنه مع ذلك يسائل نفسه : أليس التخلص من الضائقة المالية بهذه الطريقة أمرًا منافيًا للأخلاق؟ ولكن

إذا ما أقنع نفسه باللجوء إلى هذه الطريقة، فإنه سيعتبر أن المنفعة الشخصية التي سيجنيها من الوعود الكاذبة يتطابق مع حب الذات ومع الحياة الهنية التي ينتظر تحقيقها في المستقبل.

ج- هناك مثال لشخص يعيش في ظروف اليسر، ويؤثر أن يجري وراء الملذات، بدلاً من تنمية مواهبه وتثقيفها، ولكنه يسائل نفسه إن كان إهمال المواهب الطبيعية والتمتع بالملذات، يتفق مع الواجب. ويرى أن الطبيعة بحسب هذا القانون ستظل سائرة على حالها، حتى ولو ترك الانسان مواهبه تصدأ، ولم ينشغل سوى بالمتع والتناسل وتوجيه حياته نحو الفراغ.

د- وأخيرًا هناك مثال لشخص توفرت له أسباب العيش الرغيد، ويرى الناس من حوله في عوز شديد، لكنه لا يرغب في مساعدة أحدهم. فهو يفكر بالطريقة التالية: ما شأني وهؤلاء؟ أنا لن أسلب من أحدهم شيئًا، ولن أمنحه أي شيء، ولن أحسده على أي شيء، وبالمقابل لا أرغب في إسعاد أحد، ولا أن أقف إلى جانبه في أوقات الشدة. لو أصبح مثل هذا التفكير قانونًا طبيعيًا، فلن يضر بالجنس البشري قطعًا، وسيواصل هذا الجنس بقاءه دون شك.

تقوم هذه النماذج من السلوكات على تصور للواجب مستمد من الخاصية المميزة للطبيعة الإنسانية، بينما ينبغي أن يستمد الواجب من الضرورة العملية غير المشروطة بأي فعل خاص؛ أي أن يكون صالحًا لكل الكائنات العاقلة، وقانونًا لكل إرادة إنسانية. هذا يعني أنه من الممكن أن نستنبط من النماذج السابقة قاعدة نهتدي بها، ولكن لا يمكن أن نستنبط منها قانونًا أخلاقيًا. وقد تمنحنا هذه النماذج مبدأ ذاتيًا نلائم فيه بين ميولنا وأفعالنا، ولكنها لن تمنحنا مبدأ موضوعيًا نأتمر به حتى لو كانت كل استعداداتنا وميولنا ونوازعنا مضادة له. إن المبدأ الموضوعي يرتكز على الطبيعة العاقلة للإنسان كغاية في ذاتها، ومنه نستنبط كل قوانين الإرادة على أساس أنه مبدأ عملي. ويمكن أن يتخذ هذا المبدأ أو الأمر العملي الصيغة التالية:

"اعمل بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي شخص كل إنسان سواك، دائمًا وفي الوقت نفسه، بوصفها غاية وليست مجرد وسيلة".

بناء على هذه القاعدة المستمدة من المبدأ الموضوعي، التي تتخذ صيغة أمر عملي، تبدو النماذج السابقة كسلوكات وأفعال غير أخلاقية إطلاقًا، لأن الشخص المنتحر يستغل الإنسانية المتمثلة في شخصه كوسيلة لتحقيق هدفه؛ أي تحقيق حب الذات عن طريق التخلص من المعاناة.

أما الشخص الذي يقترض المال دون سداده، فهو يعامل الإنسانية المتمثلة في الغير وسيلة لتحقيق مآربه. وهكذا بالنسبة لسائر النماذج الأخرى، فهي لا تخرج عن هذا النوع من المعاملة للإنسانية، إما في شخص الأنا أو في شخص الغير.

إن هذا المبدأ الذي يقوم على معاملة الإنسانية غاية في ذاتها، ليس مستمدًا من التجربة، نظرًا لكونه مبدأ شاملاً ينطبق على جميع الكائنات العاقلة، وليس على شخص بعينه. إذن، فالفعل يلزم أن يكون صادرًا عن إرادة عاقلة تضع نصب عينيها الإنسانية جمعاء؛ بمعنى أنها إرادة تشرّع للجميع وليس للذات وحدها، وهي تشرّع بشكل كوني عام. وهذا ما منع المحاولات السابقة على كانط من اكتشاف المبدإ الأخلاقي، لأنها محاولات كانت تربط الواجب بالقوانين. ولم يخطر ببال أحد أن تلك القوانين ليست خارجية، بل هي من صنع إرادة إنسانية حرة. وعندما تكون القوانين خارجية فسترتبط بنوع من المنفعة التي تقدم في صورة جذابة (أخلاق السعادة والخير)، ومن ثم تصبح الإرادة ملزمة بتلك القوانين وتسلك وفق ما تقتضيه. هكذا ضاع المبدأ الأخلاقي في المحاولات السابقة التي عجزت عن التوصل إلى صياغة مفهوم الواجب، وكان أقصى ما توصلت إليه هو تصور نوع من الضرورة التي تحض على الفعل بدافع من مصلحة معينة. وسواء كانت هذه المصلحة شخصية أو خارجية، فإن الأمر سيتخذ طابعًا افتراضيًا ظنيًا، وهذا الأخير لا يصلح بتاتًا أن يكون أمرًا أخلاقيًا.

لهذا السبب ينعت كانط الإرادة الحرة التي تشرّع للأمر الأخلاقي باسم الإرادة المستقلة Autonome؛ أي الإرادة القائمة على مبدإ التشريع الذاتي، في مقابل الإرادة القائمة على مبدإ التشريع الخارجي Hétéronome. فالإرادة المستقلة هي إرادة كائن عاقل يعمل على مراعاة قيمة واحدة هي الإنسانية، باعتبارها غاية في ذاتها وليست وسيلة لغيرها. لذلك يعتبر كانط أن هذا الكائن العاقل الذي يتصرف وفق هذه القيمة، هو كائن يعيش في مملكة الغاية.

هكذا نخلص مع كانط إلى أن العالم توجد به مملكتان: مملكة الطبيعة من جهة، ومملكة الحرية من جهة أخرى. وتخضع مملكة الطبيعة للقانون الفيزيائي الكوني العام، بينما تخضع مملكة الغاية للقانون الأخلاقي الكوني والعام؛ أي للأمر القطعي الذي يتأسس عليه الواجب.

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com